الصباح الإسلامية
09
إشراف : ياسر السيد
العدد 2520 - السنة التاسعة
الثلاثاء 14 شوال 1437 - الموافق 19 يوليو 2016
Tuesday 19 July 2016 - No.2520 - 9th Year

ميراث الأنبياء

العلم رفعةٌ: لأنَّهُ ميراثُ الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – وتأمَّلْ معي كلمة العلم فإنَّها مكونة من ثلاثة أحْرُف: عينٌ ولامٌ وميم، العينُ من العُلُوّ، واللاَّمُ من اللطافة، والميمُ من الملك، فالعينُ تجرُّ صاحبَها إلى عليين، واللاَّمُ تصيّرُهُ لطيفًا، والميمُ تصيّرُهُ ملكًا على العباد، ويُعْطِي اللَّهُ – عز وجل – العَالِمَ ببركة العَيْنِ العزّ، وببركة اللام اللطافة، وببركة الميم المَحبّة والمَهابة.

ولذلك لمَّا خُيِّرَ سُلَيْمَانُ – عليه السلام – بَيْنَ العلم والملك والمال، اخْتَارَ العلْمَ فَأعْطاهُ اللَّهُ المَالَ والمُلْكَ مَعَ العلم.

وحينما دخل رجلٌ إلى مدينة البصرة فقال: مَنْ سَيِّدُ أهل هذه المدينة؟ فقالوا: الحسن البصري، فقال: بم سادهم؟ فقالوا: احتاج الناس إلى علمه واستغنى هو عن دنياهم.

والتفاضل بين الناس يقومُ على أسس بعيدة عن طبيعتهم البشريّة تمام البعد، هذهِ الأسسُ هي: التقوى، والأخلاق، والأعمال الصالحة، والعلمُ، يقول الله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: 9]، ويقول – عز وجل – : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: 13]، وكان النَّبِيُّ الكريم – صلى الله عليه وسلم – يُفاضل بين أصحابه، ويختارُ منهم الأمير أو القائد على أساس ما يحفظونه من القرآن الكريم، فعندما بعث بَعْثًا وَهُمْ ذَوُو عدد، أراد أن يجعل عليهم أميرًا أو قائدًا، فاستقرأهم، استقرأ كل رجل منهم ما معه من القرآن، فأتى على رجل منهم من أحدثهم سنًا فقال: « ما معك يا فلان؟ » قال: معي كذا وكذا وسورة البقرة، قال: « أمعك سورة البقرة؟ » فقال: نعم، قال: « فاذهب فأنت أميرهم ».

وفاضل الحبيبُ – صلى الله عليه وسلم – بين المسلمين في إمامة المصلين على أساس العلم والفضل فقال: « يؤمُّ القومَ أقرؤهم لكتاب الله، فإن كانوا في القراءة سواءً فأعلمهم بالسُّنَّة، فإن كانوا في السُّنة سواءً فأقدمهم هجرة، فإن كانوا في الهجرة سواءً فأقدمهم سنًا، ولا يؤمُّ الرَّجلُ في سلطانه، ولا يُجلس على تكرمته في بيته إلا بإذنه ».

هذه هي مبادئ الإسلام في اختيار الرجال الصالحين على غيرهم، كل من يُسندُ إليه أمرٌ من الأمور لابد أن يكون أهلا له، وجديرًا به.

وإنَّ العلماء ورثة الأنبياء، وهم سُرُجُ الأزمنة، فكل عالم مصباحُ أهل زمانه يستضئ به أهل عصره؛ ونذكر من صفات العلماء العاملين ما يأتي: –1 المجادلة بالتي هي أحسن، فقد يُبلغ بالرِّفق والسياسة ما لا يُبلغ بالسلاح والرئاسة، وحينما وعظ رجل الخليفة المأمون وأعنف له في القول، قال المأمونُ: يا رجل ارْفق، فقد بعث اللهُ من هو خيرٌ منك إلى من هو شرٌّ مني وأمرهُ بالرفق، فقال تعالى لموسى وهارون – عليهما السلام – حين أرسلهما إلى فرعون: ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى × قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ﴾ [طه: 44، 45].

ولنا في رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الأسوةُ الحسنة، فقد كان يجادل العصاة بالتي هي أحسنُ حتَّى يهديَهُم إلى الطريق المستقيم، أتى إليه شابٌ ونيرانُ الشهوة تشتعل بين جنبيه، فقال: يا رَسُول الله، ائذَنْ لي في الزِّنا، فأقبل القَوْمُ عليه فزجَرُوهُ، وقالوا: مَهْ مَهْ[1]، فقال – صلى الله عليه وسلم « ادْنُهْ »، فدَنا منه قريبًا، فقال: « أتحبُّهُ لأمِّك؟ » قال: لا والله يا رَسُول الله، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَك، قال: « ولا النَّاس يُحبُّونَهُ لأمَّهاتهم »، قال: لا والله يا رَسُول الله، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَك، قال: « أفتُحبُّهُ لابْنَتِك؟ » قال: لا والله يا رَسُول الله، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَك، قال: « ولا النَّاس يُحبُّونَهُ لبَنَاتهم »، قال: « أفتُحبُّهُ لأُخْتك؟ » قال: لا والله يا رَسُول الله، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَك، قال: « ولا النَّاس يُحبُّونَهُ لأخَوَاتهم »، قال: « أفتُحبُّهُ لعَمَّتك؟ » قال: لا والله يا رَسُول الله، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَك، قال: « ولا النَّاس يُحبُّونَهُ لعَمَّاتهم »، قال: « أفتُحبُّهُ لخَالتك؟ » قال: لا والله يا رَسُول الله، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَك، قال: « ولا النَّاس يُحبُّونَهُ لخَالاتهم »، فوضع – صلى الله عليه وسلم – يَدَهُ عَلَيْه، وقال: « اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَه، وطَهِّرْ قَلْبَه، وحَصِّنْ فَرْجَه »، فلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلك الفَتَى يَلْتَفِتُ إلى شَيْءٍ من المعاصي، وخَرَجَ ولَم يَكُن شَيءٌ أبغَضَ إليه من الزِّنا، ببركة معاملة النَّبيِّ – صلى الله عليه وسلم – التي تتقاطرُ نُورًا ورحمة، ولينًا ورفقًا.

–2 يُعلمون الناس فقه الأولويات: فهناك أناسٌ من الأغنياء أدَّوا فريضة الحجّ، ومازالوا حريصين على أداء حجّ التطوّع كل حين، حتى تحدّث الناسُ عنهم قائلين: لقد حجّ فلانٌ خمسَ مرّات، أو عشر مرّات، أو عشرين مرّة، ولهم أقاربُ فقراءُ، وجيرانٌ محتاجون، وإخوانٌ من المسلمين في حاجة شديدة، هؤلاء تقول لهم: إنَّ الإحسان إلى هؤلاء الفقراء والمحتاجين من الأقارب والجيران وعامّة المسلمين أولى من حجّ التطوّع في هذه الأيّام، وأعظمُ أجرًا عند الله تعالى، وأصحابُ النَّبيّ – صلى الله عليه وسلم – كانوا يسألونه عن أفضل الأعمال عند الله، وأعظمها ثوابًا ليسارعوا إليها ويقوموا بها، ولنا فيهم قدوةٌ حسنة.

وهذا من فقه الأولويّات الذي كان يفعله عبدُ الله بن المبارك وغيرُهُ من سلفنا الصالح، فقد ذُكِرَ أنَّ بعض السلف نوى حجَّ التطوّع، وكان معه نفقةٌ ثلاثمائة درهم، فعرضت له حاجةٌ ذات يوم، فبعث ابنَهُ إلى بعض جيرانه، فرجع الابنُ وهو يبكي، فقال له: ما لك يا بنيّ؟ قال: دخلتُ على جارنا وعندهم طبيخٌ فاشتهيته، فلم يطعموني، فذهب الرجلُ إلى جاره ليعاتبَهُ على ما فعل، فبكى جارُهُ، وقال: أخبرتني إلى كشف حالي، إنَّا منذ خمسة أيّام لم نطعم طعامًا، فطبختُ ميتة، وأكلناها، وعلمتُ أنَّ ولدَك يجدُ مالاً، فلا يحل له أكلُ الميتة، فتعجّب الرجل وقال لنفسه: كيف النجاةُ وفي جوارك مثل هذا، وأنت تتأهّبُ للحجّ؟ فرجع إلى بيته، وأخذ دراهمه الثمانمائة، وأعطاها لجاره الفقير، وترك حجّ التطوّع.

هذا الذي فعله الرجلُ الصالحُ، ونحثُّ إخواننا الأغنياء عليه، يُعرَف في الإسلام بفقه الأولويّات، نحن لا ننهى عن حجّ التطوّع، لكن نقول: هناك ما هو أولى وأفضل من ذلك.

–3 العِزّة: فلا يذلّ العالمُ نفسَهُ إلا لله تعالى المعزّ المذلّ، والعلماءُ الربانيون في كل زمان ومكان كانوا أعزاء، وكان الملوك والأمراءُ يهابونهم هيبة شديدة، فقديمًا كان هشام بن عبدالملك يطوف مرة بالبيت الحرام، فلقي بعض أئمة التابعين، فسلّم عليه وقال له: سلني حاجتك، فقال التابعيّ: إني أستحيي من ربي أن أسأل غيره وأنا في بيته! فلما خرج هشامٌ من البيت الحرام قال للتابعيّ: نحن الآن قد خرجنا من المسجد فسلني حاجتك.

قال التابعيّ: من أمر الدنيا أم من أمر الآخرة؟ قال هشام: من أمر الدنيا! فأمر الآخرة لا أملكه. قال التابعيّ: أنت تملك الدنيا؟ قال: لا.

قال التابعيّ: فإنّي لم أسألها ممن يملكها فكيف أسألها ممن لا يملكها.

–4 الإخلاص: فالذي يطلبُ العلمَ مبتغيًا به وجهَ الله تعالى هو في طاعة لله – عز وجل –، ولذلك يعطيه اللهُ من فضله، ويُعلي قدرَهُ، ويُيسّرُ له أمرَهُ، وتأتيه الدنيا وهي راغمة، ذلك وعْدُ الله، ولا يخلف الله وعده، يقول في حديثه القدسي: (وعزتي وعظمتي وجلالي: ما من عبد آثر هواي على هواه: إلا أقللتُ همومه، وجمعتُ عليه ضيعته، ونزعتُ الفقر من قلبه، وجعلتُ الغنى بين عينيه، وأتجرتُ له من وراء كل تاجر).

أمّا مَنْ قصد بعلمه مالاً أو جاهًا أو شهرةً بين الناس، فهذا يقول له النبيّ – صلى الله عليه وسلم – : « لا تعلّموا العلم لتباهوا به العلماء، أو لتماروا به السفهاء، أو لتصرفوا وجوه الناس إليكم، فمَنْ فعل ذلك فهو في النار ».

وإذا أراد الله – عز وجل – هلاك رجل عاقبه بثلاثة أشياء: أولها: يرزقه العلم، ويمنعه عن عمل العلماء، والثاني: يرزقه صحبة الصالحين، ويمنعه عن معرفة حقوقهم، والثالث: يفتح عليه باب الطاعات، ويمنعه من إخلاص العمل، وذلك بسبب خبث نيته، وسوء سريرته؛ لأنَّ النيّة لو كانت صحيحة لرزقه الله تعالى منفعة العلم، والإخلاص في العمل، ومعرفة حرمة الصالحين.

–5 التقوى: إنك إن اتقيت الله يسّر لك سُبُلَ العلم النافع في الدنيا والآخرة، فقد قال – جل جلاله –: ﴿ واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليمٌ ﴾ [البقرة: 282]. والعالمُ التقيُّ هو أبعدُ الناس عن المحرمات، وأعفهم عن إفلواحش والآثام، يخاف الله في سمعه، ويخاف الله في بصره، ويخاف الله في لسانه، ويخاف الله في أهله، ويخاف الله في الناس من حوله، ويخاف الله في عمله، وفي جميع حركاته وسكناته.

–6 الأمانة: للعالم دورٌ في حياة الشابّ المتعلم، لذلك يجبُ أن يكون على ثقافة واسعة حتى يستطيعَ مواجهةَ الأسئلة التي يلجُّ الشبابُ في طلب الإجابة عنها، وإذا لم يستطع الإجابةَ الشافية قال: لا أدري، فهذا يُربّي في الشباب خُلُقَ الأمانة والصدق، ويُعلّمهم الدقّة، ويكسبهم الثقة في معلّمهم، ولا عيبَ في ذلك: فقد سئل النبي – صلى الله عليه وسلم – عن خير البقاع في الأرض وعن شرّها، فقال: « لا أدري حتى أسأل جبريل – عليه السلام – »، فسأله، فقال جبريل: لا أدري حتى أسأل ربَّ العزّة، فصعد ثم هبط، فقال للنبيّ الأمين: إنَّ ربَّك يقرئك السلام ويقول لك: « إنَّ خير البقاع في الأرض المساجد، وشرها الأسواق »، ومن العلماء والأئمّة من كان يقول: لا أدري، أكثر من قوله: أدري، ومن هؤلاء: سفيانُ الثوري، والإمامُ مالك، والإمامُ أحمد، والفضيل بن عياض، وبشرُ بن الحارث.

ويجبُ على العالم ألا يكونَ سلوكه متناقضًا مع علمه وقوله، لأنَّ ذلك يشكّك الشباب في قيمة ما يُعلّمهم إيّاه، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ × كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف: 2، 3].

–7 ربط قلوب الناس بالمسجد الأقصى: فالأمّةُ المسلمة مطالبة بأن تدافع عن المساجد إذا أرادها أحدٌ بسوء، وأن تردّ عنها كيدَ المعتدين، وأحقُّ المساجد بذلك المساجدُ الثلاثة التي تُشدُّ إليها الرحال: المسجد الحرام، والمسجد النبوي، والمسجد الأقصى المستهدف في هذا الزمان من اليهود.

فعن بيت المقدس يقولُ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: بيتُ المقدس بيته الأنبياء، وعمّرته الأنبياءُ، والله ما فيه موضعُ شبرٍ إلاّ وقد سجد فيه نبيٌّ أو قام عليه ملك.

فقد كلّم الله موسى – عليه السلام – تكليمًا في أرض بيت المقدس، وتاب الله – عز وجل – على داود وسليمان عليهما السلام في أرض بيت المقدس، وردّ اللهُ على سليمان ملكه في أرض بيت المقدس، وبشّر الله زكريّا ببحيى عليهما السلام في بيت المقدس، وسخّر اللهُ مع داود الجبال يُسبّحن والطير في أرض بيت المقدس، وأوصى إبراهيم وإسحاق عليهما السلام إذا ماتا أن يدفنا في أرض بيت المقدس، وولد عيسى عليه السلام وتكلم في المهد في أرض بيت المقدس، وماتت مريم عليها السلام في بيت المقدس، وصلى النبيُّ الخاتم – صلى الله عليه وسلم – ستة عشر شهرًا أو سبعة عشر شهرًا متّجها في صلاته إلى بيت المقدس، وأسرى به ربُّه من المسجد الحرام إلى بيت المقدس، فبدأ الفتح الإسلاميّ لبيت المقدس على يديه في هذه الليلة، فقد جمع اللهُ له أشرف المخلوقات وأكرمهم من النبيّين والملائكة، وكانوا جميعًا تحت قيادته – صلى الله عليه وسلم –، وكانت صلاته بهم إمامًا مبايعةً له وإعلانًا لوضع حجر الأساس للوجود الإسلاميّ في هذه البقعة المباركة.

وبهذا أصبح المسجدُ الأقصى أمانةً في عنق المسلمين، وعهدةً لهم يجب الحفاظ عليها بكافة الوسائل، ويجبُ عليهم عمارتُهُ إلى أن يرث اللهُ الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

–8 عدم السكوت عن المنكر: فإنَّ السكوتَ عن المنكر حذَرَ منه النَّبيُّ – صلى الله عليه وسلم –، وبَيَّنَ لنا أنَّ الأمّة التي تترك مُهمَّةَ النهي عن المنكر بين أفرادها توقع نفسها في غضب الله، وتستحقّ عقابَهُ والطردَ من رحمته، قال – صلى الله عليه وسلم – : «إنَّ أوَّلَ ما دَخَلَ النَّقْصُ على بني إسرائيل أنه كانَ الرَّجُلُ يلقى الرَّجُلَ، فيقول: يا هذا، اتَّقِ اللَّهَ ودَعْ ما تصنعُ؛ فإنَّه لا يحل لك، ثمَّ يلقاهُ من الغد فلا يمنعُهُ ذلك أنْ يكونَ أكيلَهُ وشريبَهُ وقعيدَهُ، فلمَّا فعلوا ذلك ضربَ اللَّهُ قلوبَ بعضِهِم ببعضٍ» وقال –تعالى–: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ × كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ × تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ × وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [المائدة: 78 – 81]. ثمّ قال – صلى الله عليه وسلم – : «كلاَّ والله لتأمُرُنَّ بالمعْروف، ولَتَنْهَوُنَّ عن المنكر، ولَتأخُذُنَّ على يَدِ الظالم، ولَتأطِرُنَّهُ على الحقِّ أطْرًا – أي: لَتَرُدُّنَّهُ إلى الحقِّ ردًّا، ولَتَلْزَمُنَّهُ باتِّباعه – ولَتَقْصُرُنَّهُ على الحقِّ قَصْرًا ».

فاتقوا الله عباد الله، وانتبهوا من غفلتكم، واستيقظوا من رقدتكم، فكلكم مسئولٌ ومُحاسبٌ: الحاكمُ والمحكومُ، والرئيسُ والمرءوس، والعالمُ والمتعلمُ، والمديرُ ومَنْ يعمل تحت إدارته: فقد أصبحت المنكراتُ بيننا غير منكرة، والمحرّماتُ بيننا ظاهرة، فالمعاصي انتشرت في كل مكان، والنهيُ فُقِدَ للأبرياء والشرفاء، ولبست الرذيلةُ ثوبَ الفضيلة.

السكوتُ عن المنكر سببٌ في حدوث البلاء العام الذي ينزل بالصالحين والطالحين، ويأخذ المؤمنين والفاسقين، قالت زَيْنَبُ بنت جَحْش زَوْجُ النَّبيِّ – صلى الله عليه وسلم – : خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – يَوْمًا فَزِعًا مُحْمَرًّا وَجْهُهُ يَقُولُ: « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ (وَحَلَّقَ بِإِصْبَعَيْهِ الإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا) » قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: « نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ ». والخَبث هو: الفسوق والفجور.

الدروس المستفادة من حجة الوداع

أعلن رسول الله نيته بالحج، وأشعر الناس بذلك حتى يصحبه من شاء.

فترك المدينة لأواخر ذي القعدة، بعد أن أمّر عليها في غيابه «أبا دجانة» والحج هذه المرة جاء مغايرا لما ألفته العرب أيام جاهليتها.

انتهت العهود المعطاة للمشركين، وحظر عليهم أن يدخلوا المسجد الحرام.

فأصبح أهل الموسم –قاطبة– من الموحّدين الذين لا يعبدون مع الله شيئا، وأقبلت وفود الله من كل صوب تيمم وجهها شطر البيت العتيق، وهي تعلم أن رسول الله –صلّى الله عليه وسلم– هو في هذا العام أمير حجهم ومعلمهم مناسكهم!!.

ونظر رسول الله –صلّى الله عليه وسلم– إلى الألوف المؤلفة وهي تلبي وتهرع إلى طاعة الله، فشرح صدره انقيادها للحق، واهتداؤها إلى الإسلام، وعزم أن يغرس في قلوبهم لباب الدين، وأن ينتهز هذا التجمع الكريم ليقول كلمات تبدد آخر ما أبقت الجاهلية من مخلفات في النفوس، وتؤكد ما يحرص الإسلام على إشاعته من آداب وعلائق وأحكام.

فالقى هذه الخطبة الجامعة:

(أيها الناس اسمعوا قولي فإني لا أدري لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدا.

أيها الناس: إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت..

فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، وإنّ كل ربا موضوع، ولكن لكم رؤوس أموالكم، لا تظلمون ولا تظلمون.

قضى الله أنه لا ربا، وإن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله.

وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع، وإن أول دمائكم أضع دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب –وكان مسترضعا في بني ليث فقتلته هذيل– فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية...

أما بعد –أيها الناس إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه أبدا، ولكنه إن يُطع فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم!!.

أيها الناس: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾.

وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا، منها أربعة حرم، ثلاثة متوالية، ورجب –الذي بين جمادى وشعبان.

أما بعد أيها الناس: فإنّ لكم على نسائكم حقا، ولهنّ عليكم حقا.

لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة.

فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم إن تهجروهن في المضاجع، وتضربوهن ضربا غير مبرّح، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف. واستوصوا بالنساء خيرا، فإنهن عندكم عوان، لا يملكن لأنفسهن شيئا.

وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله)-1

(فاعقلوا أيها الناس قولي فإني قد بلّغت..

وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا، أمرا بيّنا: كتاب الله وسنة نبيه..

أيها الناس: اسمعوا قولي واعقلوه، تعلمنّ أنّ كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمُنّ أنفسكم، اللهم هل بلغت؟).

قالوا: اللهم نعم، فقال رسول الله –صلّى الله عليه وسلم–: (اللهم اشهد).

قال ابن إسحاق: كان الرجل الذي يصرخ في الناس يقول رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وهو بعرفة ربيعة بن أمية بن خلف.

يقول له رسول الله: قل: يا أيها الناس إن الرسول يقول: هل تدرون أي شهر هذا؟ فيقول لهم...فيقولون: الشهر الحرام..!! فيقول: قل لهم: إن الله قد حرم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة شهركم هذا..

ثم يقول: قل يا أيها الناس إن رسول الله –صلّى الله عليه وسلم– يقول: هل تدرون أي بلد هذا؟ فيصرخ به! فيقولون: البلد الحرام، فيقول: قل: إن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة بلدكم هذا!!.

ثم يقول يا أيها الناس إن رسول الله يقول: هل تدرون أي يوم هذا؟!.

فيقول لهم...فيقولون: يوم الحج الأكبر، فيقول: قل لهم: إن الله قد حرم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا..

كان الرسول –صلى الله عليه وسلم– يريد –بعد بلاء طويل في إبلاغ الرسالة– أن يفرغ في آذان الناس وقلوبهم آخر ما لديه من نصح.

كان يُحسّ أن هذا الركب سينطلق في بيداء الحياة وحده، فهو يصرخ به كما يصرخ الوالد بابنه الذي انطلق به القطار، يوصيه بالرشد، ويذكره بما ينفعه أبدا.

وكان هذا النبيُّ الطيب كلما أوجس خيفة من مكر الشيطان بالناس، عاود صيحات الإنذار، واستثار أقصى ما في الأعماق من انتباه، ثم ساق الهدى والعلم...وقطع المعاذير المتحلة، وانتزع –بعد ذلك– شهادة من الناس على أنفسهم وعليه أنهم قد سمعوا، وأنه قد بلّغ..

لقد ظل ثلاثا وعشرين سنة يصل الأرض بالسماء، ويتلو على القاصي والداني آي الكتاب الذي نزل به الروح الأمين على قلبه، ويغسل أدران الجاهلية التي التاث بها كل شيء، ويربّي من هؤلاء العرب الجيل الذي يفقه الحقائق ويفقه العالم فيها..

وها هو ذا يقود الحجيج في أول موسم يخلص فيه من الشرك، ويمحض فيه لله الواحد القهار.

وها هو ذا على ناقته العضباء يستنصت الجماهير الماثجة ليؤكد المعاني التي بعث بها، والتي عرفهم عليها، ويخلي ذمته من عهدة البلاغ والتبيان التي نيطت بعنقه.

لقد أجيبت دعوة أبي الأنبياء إبراهيم حين هتف وهو يبني البيت العتيق:

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (129) سورة البقرة.

إنّ العزيز الحكيم تجلى باسميه الجليلين على هذه الديار، فوهب العزة والحكمة أو قل: القوة والسياسة لمحمد بن عبدالله، فعالج بها الآثام الجاثمة على صدر الأرض، فما استعصى على الأناة والحلم استكان للتأديب والحكم.

وبهذا المنهج الجامع بين العدل والرحمة أخذت رقعة الباطل تنكمش رويدا رويدا حتى اختفت الجاهلية ولوثاتها، وثبت الإسلام، ثم أصاخ العرب –بعد ما لان قيادهم– إلى صوت الحق وقد تلقت عنه مباشرة، وكان لذلك أكبر الأثر في أن تبقى رحى الإسلام دائرة وإلى الأبد. ففي حجة الوداع كانت اللمسات الأخيرة في تربية الأفراد والمجتمع على كتاب الله وسنة رسوله –صلى الله عليه وسلم–.

–2 تربية الأفراد على قطع الصلة بالجاهلية والابتعاد عن الذنوب:

أ– فقد أشار –صلى الله عليه وسلم– إلى أهمية قطع المسلم علاقته بالجاهلية، أوثانها، وثاراتها، ورباها، وغير ذلك، ولم يكن حديثه –صلى الله عليه وسلم– مجرد توصية بل كان قرارًا أعلن عنه للملأ كله لأولئك الذين كانوا من حوله والأمم التي ستأتي من بعده، وهذه هي صيغة القرار: «ألا إن كل شيء من أمر الجاهلية، تحت قدمي موضوع، دماء الجاهلية موضوعة... وربا الجاهلية موضوع»؛ لأن الحياة الجديدة التي يحياها المسلم بعد إسلامه حياة لا صلة لها برجس الماضي وأدرانه.

ب– وقد حذر –صلى الله عليه وسلم– من الذنوب والخطايا والآثام، ما ظهر منها وما بطن؛ لأن الذنوب والخطايا تفعل بالفرد ما لا يفعله العدو بعدوه، فهي سبب مصائبه في الدنيا (وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ) الشورى: 30 فتردیه في نار جنهم في الآخرة، وتفعل في المجتمعات ما لا يفعله السيف، وأعلن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أنه لا يقصد بالخطايا العودة إلى عبادة الأصنام؛ لأن العقول التي تفتحت على التوحيد، ترفض أن تعود إلى الشرك الظاهر، ولكن الشيطان لا ييأس من أن يجد طريقه إليها من ثغرات الخطايا والذنوب، حتى تردي صاحبها في المهاوي.

–3 تربية المجتمع على مبادئ أساسية:

أ– الأخوة في الله هي العروة الوثقى التي تربط بين جميع المسلمين (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) الحجرات: 10 فقد قال –صلى الله عليه وسلم–: «أيها الناس، اسمعوا قولي واعقلوه، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمن أنفسكم» وقال: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا حتى تلقوا ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدي ضلالاً يضرب بعضكم رقاب بعض».

ب– الوقوف بجانب الضعيف حتى لا يكون هذا الضعف ثغرة في البناء الاجتماعي، فأوصى –صلى الله عليه وسلم– في خطبته بالمرأة والرقيق على أنهما نموذجان عن الضعفاء، وأكد في كلمة مختصرة جامعة القضاء على الظلم البائد للمرأة في الجاهلية، وتثبيت ضمانات حقوقها وكرامتها الإنسانية التي تضمنتها أحكام الشريعة الإسلامية.

الأخير في حجة الوداع.

وفي يوم عرفة من هذه الحجة العظيمة نزل قول الله عز وجل:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا..﴾. (3) سورة المائدة.

وعندما سمعها عمر بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: إنه ليس بعد الكمال إلا النقصان. وكأنه استشعر وفاة النبي صلوات الله عليه وسلامه.

والحق أن مشاعر التوديع للحياة والأحياء كانت تنضح بها بعض العبارات التي ترد على لسان الرسول –صلى الله عليه وسلم–، منها ما سبق ذكره في خطبته بالموسم، ومنها ما يقع في أثناء تعليمه الوفود المحتشدة حوله، كقوله عند جمرة العقبة: خذوا عني مناسككم فلعلي لا أحج بعد عامي هذا.2

ومن الفوائد أيضاً من هذه الحجة:

–1 مرحلة النضج التي وصلت إليها الأمة:

وصلت الأمة الإسلامية في السنة العاشرة مرحلة من النضج متقدمة، وكان ذلك يقتضي لمسات أخيرة، فوسع –صلى الله عليه وسلم– في العامين التاسع والعاشر من الهجرة دائرة التلقي المباشر من خلال استقباله الوفود، ومن خلال رحلة الحج، فأوجد قاعدة عريضة تحمل دعوته وأفكاره من النبيين والملائكة، وكانوا جميعًا تحت قيادته – صلى الله عليه وسلم –، وكانت صلاته بهم إمامًا مبايعةً له وإعلانًا لوضع حجر الأساس للوجود الإسلاميّ في هذه البقعة المباركة.

وبهذا أصبح المسجدُ الأقصى أمانةً في عنق المسلمين، وعهدةً لهم يجب الحفاظ عليها بكافة الوسائل، ويجبُ عليهم عمارتُهُ إلى أن يرث اللهُ الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

–8 عدم السكوت عن المنكر: فإنَّ السكوتَ عن المنكر حذَرَ منه النَّبيُّ – صلى الله عليه وسلم –، وبَيَّنَ لنا أنَّ الأمّة التي تترك مُهمَّةَ النهي عن المنكر بين أفرادها توقع نفسها في غضب الله، وتستحقّ عقابَهُ والطردَ من رحمته، قال – صلى الله عليه وسلم – : «إنَّ أوَّلَ ما دَخَلَ النَّقْصُ على بني إسرائيل أنه كانَ الرَّجُلُ يلقى الرَّجُلَ، فيقول: يا هذا، اتَّقِ اللَّهَ ودَعْ ما تصنعُ؛ فإنَّه لا يحل لك، ثمَّ يلقاهُ من الغد فلا يمنعُهُ ذلك أنْ يكونَ أكيلَهُ وشريبَهُ وقعيدَهُ، فلمَّا فعلوا ذلك ضربَ اللَّهُ قلوبَ بعضِهِم ببعضٍ» وقال –تعالى–: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ × كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ × تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ × وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [المائدة: 78